القرآن الكريم
فى كتاب النثر الفنى
للأستاذ محمد أحمد الغمراوى

تمهيد

شكا الدكتور زكى مبارك العدد ٥٥٧ من الرسالة من أنى كتبت فيه كلمة مؤذية سبق كلمات مؤذيات ، وزعم أنى أبحث عن فرصة جديدة تؤيد ما رمى باتهامه فى إسلامه ، وأن الباعث على محاربتى إياه ليس هو الدين ، ولكن غرامى بأن يقرن اسمى باسم الدكتور زكى مبارك

وتأذى الدكتور زكى مبارك بما كتبت ليس لى فيه من فضل ، فالفضل — أو الذنب — فيه راجع كله إلى الدكتور الفضال . فهو الذى لا يفتأ يتعرض للدين بما لا يمكن أن يقره عليه عقل ولا دين ، وبما يخالف الكتاب والسنة والإجماع عند المسلمين . يتعرض لا لجزئية من الجزئيات يجوز فيها الخلاف ، ولكن للأصول التى يقوم الدين بقيامها ، وينهدم بانهدامها ، كأصل إعجاز القرآن ، وأن القرآن كتاب الله لا كتاب محمد ابن عبد الله

والخصومة التى بيننا ليس منشؤها ما يعتقد الدكتور زكى مبارك ، ولكن ما يعلن الدكتور ويدعو إليه . فاعتقاده ودينه أمر بينه وبين ربه ، أما ما يعلن ويكتب فأمر بينه وبين الناس . هو حر فيما يرى ويفكر وفيما يعتقد ما اقتصر ذلك على ذات نفسه ، أو ظل سراً بينه وبين خلصائه . لكنه يفقد تلك الحرية فى اللحظة التى يحاول فيها أن يتخذ من الأدب وسيلة لبث آرائه ومعتقداته بين الناس . إنه فى تلك اللحظة يصطدم بما يعتقد الناس ، إذا كان ما يعتقد يخالف ما يعتقدون ، خصوصاً إذا كان ما يعتقدونه هو الحق وما يدعو إليه هو الباطل . أفيعجب الدكتور عندئذ أن يرتد عليه الاصطدام فيتأذى به كما آذى به الناس ؟ أم هو يظن أن الحرية له فى الهجوم ، وأن ليس لغيره حرية فى الدفاع ؟

وللدكتور فى الخصام حيل كتلك التى تكون فى القتال ، منها أن يلقى إلى خصومه أقوالاً يرجو أن يشغلهم بها وأن يشكك الناس فيهم . ولا بأس من أن ننخدع له هذه المرة فننظر فيما ألقى

يقول إننا نحاربه لا للدين ، ولكن ليكون لاسمنا ذكر مع اسمه الكريم . ولو وجد الدكتور شيئاً غير هذا يقوله لقاله ، ولكنه نظر فوجد أننا لا نتخذ الأدب صناعة فيأتينا من ناحية المنافسة ، ولا يجوز عنده أن تكون محاربتنا له لوجه الله ، فلم يبق إلا أن يقول أننا نلتمس الشهرة عن طريق التعرض له والطعن فيه

إن كان ذلك كذلك ، فلماذا تركنا الدكتور كل هذه السنين يبدئ ويعيد فى الأخلاق وغير الأخلاق مما يتصل بالدين اتصالاً وثيقاً أو غير وثيق ، من غير أن نتعرض له إلا مرتين يفصلهما خمس سنين : الأولى حين ختم كلمة له فى نعيم الجنة بذلك الدعاء الماجن : « اشغلنى عنك يا رباه بأطايب نعيم الجنة ، فإن نظرى لا يقوى على نور وجهك الوهاج » . والثانية حين كتب مقاله : « أعوذ برب الفلق من شر ما خلق » الذى أنكره ابتداء ، حين حوسب على بعض ما فيه ، ثم أقر به لما أيقن أن لن يصدقه أحد فى الإنكار ، كالرجل الذى يتبرأ من ولده الجانى وينكره ثم يستلحقه إذا وجد عار الإنكار أكبر من عار الإقرار ... متناسبتان اثنتان بينهما خمس سنوات لم نتعرض للدكتور إلا فيهما فى عمر الدكتور المملوء بما يؤاخذ عليه فى الأدب والأخلاق والدين . فهل لم يكن بنا حاجة إلى الشهرة طوال تلك الأعوام لنلتمس التحليق فى جوها على جناحه المتين ؟

وقد وقع الرجل على حيلة أخذها عن صديقه الشيطان[1] هى أن يسمى المسميات ضد أسمائها ليدخل على بعض النفوس عن طريق الإيحاء . فستر الإنسان جسمه بالثياب رياء واعوجاج فى الضمير[2] ؛ والدعوة إلى تعريته دعوة إلى الحياة[3] ؛ واحتضان الفتاة للفتى هو مثال الفرح النبيل[4] ؛ وهجوم الفتاة على الفتى طاعة لغريزة كريمة[5] ؛ وانتهاب الجمال هو فى ذاته شكران لواهب الجمال[6] ؛ والشيطان مخلوق شريف[7] ؛

(١) العدد ٢٣٠ من الرسالة صفحة ١٩٣٤
(٢) و (٣) العدد ٥٢٩ من الرسالة صفحة ٦٦٨
(٤) و (٥) العدد ٤٤٦ من الرسالة صفحة ٦٢
(٦) العدد ٤٥٥ من الرسالة صفحة ٣٤٦
(٧) العدد ٢٥٧ من الرسالة صفحة ٩٤٤

والأديب الحق يستبيح فى عتاب الأقدار ما لا يباح[1] ؛ وبعض الكفر إيمان ولكن أكثر الناس لا يفقهون[2] ؛ إلى آخر ما هنالك

ولست فى شىء مما كتبت أو أكتب عن هذا الرجل متجنياً عليه أو مبالغاً ، فتلك المعانى التى نسبتها إليه آنفاً ليست من عندى ولكن من عنده . هى بعض عباراته تشهد عليه ، وبعض بضاعته ترد إليه

وحيلة أخرى لهذا الرجل أن يلقى إليك المعنى الذى يعرف أنك تأباه مقروناً بمعنى يعرف أنك ترضاه ليسهل عليك بهذا قبول ذاك ، أو على الأقل ليوقفك موقف المرتاب . فتراه مثلاً يقول لك : « انتفع الصوفية بسماحة الإسلام ، وهو دين يأبى أن يكون بين المسلم وربه وسيط ، فقرروا أنهم أرفع من الأنبياء . وهذا كفر بظاهر القول ، ولكنه فى الجوهر غاية الإيمان »[3] !

فانظر كيف رتب على المعنى الذى يعرف أنك ترضاه معنى يعرف أنه لو ألقاه إليك مجرداً لأبيت عليه ، ولنبذت إليه . والمعنى الذى ألقاه معنى ذو نتوء كرأس إبليس . ظاهره أن الصوفية يضعون أنفسهم فوق مرتبة النبوة ، لأنهم أعرف بالله وأرعى له من الأنبياء ، وباطنه أن ليس بهم ولا بك إذا ارتقيت مثلهم إلى الأنبياء حاجة ، وإلا كان بينك وبين الله وسطاء ، والإسلام يأبى أن يكون بين المسلم وربه وسيط ؛ فتلك هى فى رأى زكى مبارك سماحة الإسلام وبها انتفع الصوفية ! والرجل يكذب فى الحالين على الصوفية وعلى الإسلام . فلا الإسلام يهدم نفسه بسماحة حمقاء كالتى نسبها إليه زكى مبارك ، ولا الصوفية بلغ بهم الغرور أن يروا أنفسهم فوق الأنبياء

ومثل آخر من نفس الباب قوله[4] : (وفى طلب السلامة من أذى السفهاء . قال الرسول : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة » ... والعدل يوجب أن يكون ما يترك الأنبياء ميراثاً حلالاً لأبنائهم ، ولكن الحرص على قطع ألسنة المتزيدين هو الذى أوجب أن يحرم الأنبياء أبناءهم من ذلك الميراث . وذلك ظلم جميل !) هكذا يقول زكى مبارك ، وهكذا يقدم لقرائه فى هذا الكلام قنبلة ملفوفة تكفى لنسف أى إيمان

دعك مما فى كلامه هذا من مثل « جميل » و « رسول » (وأنبياء) و « قطع ألسنة المتزيدين » وتأمل ما وراء ذلك تجده يريد أن يدخل فى نفسك أن ترك الأنبياء أموالهم كلها صدقة شىء فعلوه من عند أنفسهم لا بأمر ربهم ، وأنهم بذلك خالفوا العدل ووقعوا فى أقبح الظلم ، ظلم الأبناء . ومن أجل ماذا ؟ من أجل السلامة من أذى السفهاء وقطع ألسنة المتزيدين ، أى من خوف الناس ! وماذا يبقى من مبدأ عصمة الأنبياء بعد هذا ؟ لا شىء عند من يقبل من زكى مبارك هذا الكلام ، وعلى دينه العفاء !

وإذا رجعت إلى حديث الرسول صلوات الله عليه — وزكى مبارك حرف المعنى ولم يحرف اللفظ — تجده يحتوى على الحجة المبطلة لكل ما ذهب زكى مبارك إليه ، وهى قول الرسول (نحن معاشر الأنبياء لا نورث) بصيغة التعميم لا بصيغة التخصيص . فلو صدق ذلك على بعض الأنبياء دون بعض لما كان من سنن النبوة ، ولكن من رأى ذلك البعض ، ولجاز ولو من بعيد ما زعمه زكى مبارك . أما وهو صادق على الأنبياء أجمعين فلا بد أن يكونوا فعلوه عن أمر الله لا أمر أنفسهم ، لاطراده فيهم على اختلاف الأزمان — والاطراد على اختلاف الزمن هو طابع الفطرة التى هى دين الله — ثم لاستحالة معرفة الرسول صلوات الله عليه أن الأنبياء أجمعين كانوا يفعلون ذلك إلا بإخبار وتوقيف من الله

لكن زكى مبارك لا يلتفت إلى مثل هذه الدلالات فى كلام النبوة ، لأنه مشغول بترويج ما له من مذهب ورأى ؛ يتلطف للدخول به على الناس حيناً ، ويتقحم به عليهم حيناً ؛ تارة يلمح وتارة يصرح ، وطوراً يجمع لهم الأضداد ويرميهم بالمتناقضات تلهياً وتشفياً ، كأن بينه وبين الناس ثأراً لا يشفى نفسه منه إلا أن يبلبل منهم الفكر[1] ويزلزل منهم العقيدة ليكون أدبه قوة تسل الخصوم وتزلزل الزمان[2]

محمد أحمد الغمراوى

(١) و (٢) العدد ٣٥٥ من الرسالة صفحة ٧٠٥
(٣) العدد ٤٩٣ من الرسالة صفحة ١١٣٨
(٤) العدد ٤٠٦ من الرسالة صفحة ٦٢٨

(١) العدد ٣٨٢ صفحة ١٦٢١
(٢) « ٤٩٨ « ٤٥